المبادلات التجارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي

د. خير الدين شترة
قسم التاريخ – جامعة أدرار

الملخص:
حاولنا في هذه الدراسة عرض الإطار الجغرافي والبشري والبيئي والاقتصادي والاجتماعي للصحراء الجزائرية ولإقليم توات...والتعريف بسكان المنطقة وتشكيل البنية القبلية وأماكن الاستقرار والمسالك الصحراوية من وإلى إقليم توات مع التركيز على كل ما يتعلق بالحياة الاقتصادية التي سنتطرق فيها إلى جانب المبادلات التجارية وما يرتبط بها(الأسواق التجارية، السلع والمنتجات، أسعار السلع المتداولة، أدوات الكيل والقياس والوزن...) لنخلص في النهاية إلى التأكيد أن هذا الإقليم ارتبط بحواضر المغرب الإسلامي وكذا إقليم السودان الغربي ارتباطاً وثيقاً بواسطة أعراف تجارية نسجت شبكة من الاتصالات الاقتصادية وهو ما انجر عنه تبادل ثقافي وحضاري أعطى للإقليم دوراً ريادياً عبر العصور، ذلك أن المنتجات التي سوّقها التجار المسلمون القادمون من الشمال كانت بالإضافة إلى منافعها المادية تحمل في طياتها مؤثرات حضارية تعكس صورة ديانة سمحاء، وثقافة مجتمع مسالم في هذه الأقاليم النائية...، وبذلك كانت التجارة بهده الصورة تخدم أبعاداً حضارية ودينية وثقافية لكلا الطرفين وتشكل عاملاً للتطور كان كافياً ومهماً لكل منهما.

We tried in this study to present the geographical, human, environmental, economic and social status of the Algerian desert and the Twat territory and the presentation of inhabitants region and the formation of tribal structure and stability places and routes in the desert to and from the Twat territory with a focus on everything about the economic life in which we will address to trade exchanges and all what it has of bond with (Market trade, commodities and products, the Prices of the deliberating Goods, measuring instruments and weight…) to conclude in the end and to emphasize that this region has been associated with the Islamic Maghreb metropolis, as well as the western province of Soudan is closely linked by trade usages wove a network of economic contacts which lead to an exchange in culture civilization given the leading role of the province through the ages, that returns to the fact that the products marketed by Muslims coming from North was, in addition to these material interests, a vector of a grace religion which reflect the image of a peaceful society…, This way of making the trade took part in the development of the religion and the culture of the two parts and it Constitutes a factor of development significant and sufficient for both sides.

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا الغربية ما لم يلعبه المحيط الأطلسي من الأدوار الحضارية الهامة، فقد كانت مسارب الصحراء إلى غربي إفريقيا خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى إفريقيا جنوب الصحراء عموماً وإفريقيا الغربية بصورة أخص، وقد استمر هذا التوارد للحضارة إلى غربي إفريقيا خلال فترة طويلة من العصور الحديثة أيضا، وطوال هذه الفترة كانت مياه المحيط الأطلسي لا تأتي لغرب إفريقيا بشيء من الحضارة.

والحقيقة أن قبائل السودان الغربي قد اتصلت منذ القديم مع سكان الشمال الإفريقي شمال الصحراء، ولم تكن الصحراء في يوم من الأيام تشكّل عائقاً دون الاتصال الحضاري المثمر بينهما، وكانت الأسس الأولى المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع وكانت التجارة بهده الصورة تخدم مصالح الطرفين وتشكل عاملاً للتطور كان كافياً ومهماً لكل منهما.

ويعد جوهر العلاقة بين سكان الشمال الإفريقي وسكان جنوب الصحراء اقتصادياً بالدرجة الأولى، حيث أن العامل الاقتصادي والتجاري والسعي وراء الكسب المادي كان السبب الرئيسي الذي جعل التجار يجوبون الصحراء ويتحملون مشاق واختيار الطرق الأنسب لقوافلهم، حيث أسهم هؤلاء التجار في بناء علاقات مع أمثالهم من التجار جنوب الصحراء بالدرجة الأولى والذين تربطهم بهم علاقة تبادل السلع، كما أقام التجار علاقات مع القاطنين في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية فنشأت مراكز لاستقبال القوافل فيما بعد.

وبما أن أولئك التجار كانوا في غالبيتهم من العرب المسلمين بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا كانوا من الذين يمارسون شعائرهم الإسلامية ويطبقون القوانين الإسلامية في المعاملات المالية وغيرها من النشاطات الأخرى أينما رحلوا، وأدت مزاولة التجار فروض الإسلام من صلاة وصوم وصدقة إلى إثارة انتباه الإفريقيين الذين تعرفوا للمرة الأولى على هذا الدين الجديد فتأثروا بهم تدريجيا، ثم ما لبث أن اعتنق الكثير منهم الإسلام وفضلوا الدخول فيه طوعاً واختياراً[1]، يُضاف إلى ذلك، أن كل مسلم مكلف بنص الدين بمهمة نشر الدين والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ثم خوض المعارك في سبيل الدفاع عنه ولكننا لا نعرف عن معارك قامت لنشر الدين في المنطقة إلا في عهد المرابطين بالمغرب.

كما كانت المسافة التي يقطعها التجار بين الشمال الأفريقي وجنوبها الغربي شاسعة والمدة التي يقطعونها في الرحلة طويلة، الأمر الذي أدى بالكثير من التجار إلى الزواج بزوجات من المناطق التي يتعاملون معها ويستقرون فيها، وأدى هذا بدوره إلى إظهار جيل مختلط كسب دينا وثقافة جديدة بالإضافة إلى ثقافته مما ساعد في تسارع انتشار الإسلام.

كما جلب التجار معهم من الشمال الأفريقي إلى الجانب الآخر من غرب إفريقيا ووسطها المعرفة بشتى أنواعها وحضارة العالم في العالم الإسلامي بمفاهيمه الدينية، والأنماط الجديدة من التعليم والفن المعماري والمحاصيل والصناعات والمهارات الجديدة، يقول البكري[2] في تحقيقه عن انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية « أن ملك بلاد التكرور(الستغال) المدعو "ورجاني بن دايسن" قد اعتنق الإسلام، ومن الواضح أن إسلام هذا الملك قد جعل أتباعه يعتنقون الإسلام وأتبعهم الكثيرون».

---

[1] - توماس أرنولد، الدعوة للإسلام، تر.حسن إبراهيم، القاهرة:ب.ن، 1968م، ص.ص(282-281).

[2] - أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، تح دي سيلان، الجزائر: 1957م، ص.ص(161-148).

نستخلص مما سبق أن العلاقة بين الضفتين كانت علاقة تجارية وثقافية ذات طابع سياسي قائم على تحقيق المصالح المشتركة بين الجانبين، حيث اعتمدت هذه العلاقة على نتائج سياسية واقتصادية وثقافية بين الشمال والجنوب منذ الفتح العربي وهي انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية.[1]

1- التكوين الطبيعي للصحراء الجزائرية:

1. 1- المـوقـع الجغرافي:

تبلغ مساحة الصحراء الجزائرية (1.987,600 كلم2)، وبذلك تغطي مساحة تبلغ نسبتها 90% تقريباً من المساحة الكلية للجزائر والتي تقدر بـ (2.195,600 كلم2)، إن التكوين الطبيعي للصحراء أبسط من المنطقة التلية(الشمالية) إذ تخلو من الجبال (ما عدا جبال الهقار والتاسيلي) والمرتفعات المعقدة والسهول الضيقة المحصورة والالتواءات الحديثة ولكنها تضم سهولاً تحاتية واسعة وأحواضاً مغلقة، وجبالاً لها حافات شديدة الانحدار، وعروقاً رملية متحركة، وعلى هذا الأساس تنقسم الصحراء الجزائرية من حيث التكوين الطبيعي إلى أربع مناطق متباينة هي:

- منخفض الجهة الشمالية الشرقية، وتظهر فيه بعض الشطوط مثل شط ملغيغ الذي يقع تحت مستوى سطح البحر بحوالي (31م).
- سهول تحاتية تغطيها الرمال، وتحتل أكبر مساحة في الصحراء الجزائرية.
- منطقة الهضاب الصخرية الواقعة على الأطراف الشمالية وفي الوسط كهضبة تادمايت إلى الشمال من واحة تمنراست.
- الكتل الجبلية المرتفعة في الركن الجنوبي الشرقي وهي جبال "الهقار" التي تبلغ أعلى قمة فيها (3.003 م)، وهي قمة "تاهات" بمرتفعات الأتاكور الواقعة إلى الشمال من واحة تامنراست تليها قمة "إيلامان" (2.823م)، ثم قمة "عين طاريان" (2.762م)، وقمة "اسكريم" (2.804م)، وقمة "توزات" بعلو (2.400م) وكلها بجبال الأتاكور.

كما تضم الصحراء الجزائرية ثلاثة مظاهر تضاريسية متباينة هي: الحمادة، والرق، والعرق. فالحمادة عبارة عن هضبة صخرية تغطيها صخور جيرية ممتدة على شكل صفائح طبقية، ومن أهم الحمادات حمادة "الذراع"، بالجهة الجنوبية الغربية، وحمادة "القلاب" على الحدود الموريتانية وحمادة "تادميت" إلى الشمال من واحة عين صالح وسط الصحراء الجزائرية[2]، أما "الرق"، فهو سهل صخري أو حوض منخفض ملأته لسيول الجارفة بالرواسب الصخرية، أي أن رواسبه فيضية، وأخيراً "العرق"، وهو يختلف عن الحمادة والرق في أنه مسطح واسع الأطراف، تغطيه كثبان رملية تشبه أمواج البحر، حملتها الرياح من الحمادة أو الرق، وبهذا تكون رواسب العرق "هوائية"[3].

تحتل العروق مساحة واسعة من الصحراء الجزائرية، ففي الجهات الشرقية يوجد العرق الشرقي الكبير الذي يمتد إلى ما وراء الحدود الجزائرية التونسية؛ حتى المنخفض الفاصل بين هضبة "تادميت" وواحة المنيعة، ثم العرق الكبير الذي يمتد من بني عباس غرباً حتى هضبة المنيعة شرقاً. بالإضافة إلى عرق الشيخ وعرق إيجيدي على الحدود الجزائرية الموريتانية، وهناك عدد كبير من الأودية على أطراف الصحراء خصوصاً المنحدرة من سلاسل جبال الأطلس الصحراوي، والتي غالباً ما تفيض في فصل الشتاء نظراً لتأثرها بمناخ البحر الأبيض المتوسط، مثل وادي مزي، ووادي ريغ[4].

2.1 -المناخ وفترات الجفاف:

---

[1] - محمد المصباح الأحمد، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، بيروت: دار الملتقى للطباعة والنشر، 2001م، ص 173.

[2]- Blanguernon (Claude) , Le Hoggar, Paris, Arthaud, 1965, pp(13-19).

[3] - Ibid., p62.

[4] - Furon(Raymond), Le Sahara, Paris, Payot, 1964, P (91-101).

يتميز مناخ الصحراء بالجفاف وقلة الأمطار تدريجياً من الشمال إلى الجنوب، حيث لا يزيد متوسطها السنوي عن (100م)، وإن هي نزلت فلا تكون إلا بعد سنوات، فقد لوحظ أن بعض الأماكن من الصحراء لم تسقط فيها الأمطار لمدة 25 سنة، وتعود ظاهرة الجفاف هذه إلى وقوع الصحراء في المنطقة الخارجية عن تأثير المدارين، وهي المنطقة التي تتجمع فيها الرياح القادمة من خط الاستواء، وبذلك فهي منطقة ضغط مرتفع ومصدر للرياح التي تهب من الصحراء نحو المنطقة الاستوائية، وهي رياح جافة لا تسبب نزول الأمطار لأنها تتحرك على سطح يابس[1]، ولما كانت منطقة الصحراء واقعة بين الإقليمين السوداني في الجنوب، وإقليم الإستبس في الشمال، فإنها تتأثر بهذين المناخين، حيث يقل هذا التأثير تدريجياً كلما توغلنا نحو الداخل.

ومنطقة الصحراء الجنوبية تتأثر أمطارها بأمطار المنطقة المدارية التي تتميز بفصين متباينين: فصل ممطر في الصيف، وفصل جاف في الشتاء، وهذا بعكس الجهات الشمالية من الجزائر وبهذا تتميز المنطقة بفترة ممطرة تبتدئ من شهر مايو حتى شهر سبتمبر، وذلك عندما تهب الرياح الموسمية على الأطراف الجنوبية للصحراء[2]، وعلى العموم فإن الأمطار الصحراوية تتميز بأنها أمطار إعصارية فجائية كثيراً ما تؤدي إلى وقوع الكوارث.

لقد كان للوضع الجغرافي انعكاس مباشر على مناخ الصحراء، حيث يسودها مناخ قاري قارس في فصل الصيف، حيث ترتفع درجة الحرارة إلى (+°50) في الظل، وقد تصل بمدينة أدرار أو عين صالح إلى (+°45)، كما تنخفض في الشتاء إلى درجة الصفر، وبهذا يكون المدى الحراري السنوي كبيراً جداً بالإضافة إلى ذلك تتعرض الصحراء إلى هبوب رياح جافة وفي بعض الأحيان متميزة بعواصف هوجاء من الرمال تعرقل جميع أنواع النشاط البشري[3]، وتتميز بندرة الأمطار وعدم انتظامها حيث لا يزيد متوسطها السنوي عن (200 ملم) وترتفع على الهوامش الشمالية وقمم المرتفعات ما بين 50- 200 ملم، وتتراجع إلى ما دون 50 ملم في باقي المناطق وتعود ظاهرة الجفاف في الصحراء إلى كونها تقع في المنطقة المدارية التي تهب عليها الرياح القادمة من خط الاستواء، وبالتالي فهي منطقة ضغط مرتفع ومصدر للرياح التجارية التي تهب من الصحراء نحو المناطق الاستوائية، وهي رياح جافة ولا تسبب نزول الأمطار لأنها تتحرك على سطح يابس.

تقع الصحراء بين الإقليم السوداني في الجنوب والإقليم الاستبسي في الشمال فشمال الصحراء تتسلل إليه الرياح الغربية والشمالية الغربية في فصل الشتاء فتسقط الأمطار على الهوامش الشمالية أما الجنوب فأمطاره ترتبط بأمطار المنطقة المدارية التي تتميز بفصلين متباينين؛ هما الصيف الممطر والشتاء الجاف، وبذلك نجد أن للمطر الصحراوي فترتين إحداهما تبتدئ من شهر نوفمبر إلى غاية شهر جانفي عندما تهب الرياح الشمالية الغربية الممطرة على الهوامش الشمالية، أما الثانية فتبتدئ من شهر ماي، إلى شهر سبتمبر وذلك عندما تهب الرياح الموسمية على الهوامش الجنوبية[4].

إذن فظاهرة الجفاف السائدة في الصحراء تعود إلى الارتفاع الكبير لدرجات الحرارة مع النقص في تساقط الأمطار، وهذا ما يوضحه مخطط قوسن (العلاقة بين الحرارة والأمطار) لمحطة تامنراست[5]، التي تمثل نظام مناخ المناطق الجنوبية، إذ نجد الفارق كبيراً بين الأمطار والحرارة الأم الذي يكون هو سبب تمديد فصل الجفاف، فالحرارة تبتدئ في الارتفاع منذ الشهر الثالث لتصل إلى

---

[1] - Ibid., P102

[2] - جيلالي (صاري)، دور البيئة في الجزائر، الجزائر: م.و.ك، 1983م، ص.ص(20-18).

[3] - Josse (Raymond), "Problèmes De Mise en Valeur Du Hoggar et de Croissance Urbaine a Tamanrasset", in Cahiers d'outre- mer, Bordeaux, 1971, n 95, P248

[4] - مياسي(ابراهيم)، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي، ماجستير في التاريخ المعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، (1987-1986)، ص13.

[5] - جوتييه (أندريه)، الصحراء، تر. أحمد كمال يونس، القاهرة: لجنة البيان العربي، 1957، ص.ص(35-34).

أقصاها في الشهر السابع والثامن متجاوزة 30° كمتوسط، ثم تبدأ في التراجع إلى حدود (15°)؛ بينما الأمطار قليلة ما عدا في الفترة الممتدة ما بين ماي إلى سبتمبر حيث يتراوح المتوسط المطري ما بين 50- 120 ملم.

ومحطة بسكرة[1] التي تمثل نظام مناخ المناطق الشمالية للصحراء تزداد فيها كمية الأمطار في فصل الشتاء بين شهر أكتوبر وشهر أفريل لتقل في فصل الصيف خاصة في ماي وجوان وجويلية و أوت في المقابل ترتفع درجات الحرارة ما بين ماس وأكتوبر ليتسع فيها الجفاف في حين تكون فترة الرطوبة ما بين نوفمبر إلى مارس حيث تزداد الأمطار وتقل الحرارة، وكان لهذا المناخ دور كبير في سير الأحداث التاريخية وفي السياسة الفرنسية التي كانت تختلف عما عرفه الشمال من أحداث تاريخية.

واعتنى كثير من الجغرافيين –الرحالة- بدراسة مناخ الصحراء الجزائرية الكبرى منذ القرن التاسع عشر (19م) ورصد درجات الحرارة وكميات الأمطار والضغط وغيرها من الظواهر الطبيعية، ولهذا وعلى ضوء هذه الدراسات أمكن تحديد فترات الجفاف التي تعرضت لها المنطقة، فعلى مدى مئة عام من 1860م إلى 1960م سجلت خلالها 34 سنة اعتبرت سنوات قحط، مما يدل على أنه من بين كل عشر سنوات هناك ثلاث سنوات جافة تكون وطأتها أقل تأثيراً، إذ كانت متفرقة، وإن توالت أصبحت تنذر بالخطر (المجاعة) وقد تم تحديد فترات النكبة Calamitées، فيما يلي[2]:

الفترة الممتدة من 1880م إلى 1883م، وهي فترة قصيرة نسبياً اعتبرت فترة قحط شديد، على أساس أن الظروف السياسية في ذلك التاريخ زادت من حدة وطأتها على سكان المنطقة.

الفترة الممتدة من 1897م إلى 1900م، وهي فترة تعتبر أقل وطأة من سابقتها.

الفترة الممتدة من 1910 إلى 1916م، وتعتبر أصعب فترة للجفاف من سابقتيها، إذ لم يبق خلالها أحد تقريباً من البدو في منطقة الهقار، حيث اتجهوا إلى «الآجار» والقسم الأكبر منهم اتجه إلى "أدرار أيفوراس" وإلى "تامسنة" بالنيجر، لكن آثار الجفاف امتدت إلى هذه المناطق نفسها سنة 1913م، حيث شهدت نقصاً في كمية الأمطار، خصوصاً في شتاء 1913م، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من المواشي بالإضافة إلى النقص الشديد في كميات الذرة.

الفترة الممتدة من 1936م إلى 1938م، تعتبر فترة جفاف محلية بالرغم من سقوط بعض الأمطار التي أدت إلى فيضانات في بعض الأودية كوادي تامنراست ووادي أتول، وكانت أقل وطأة، لأن الطوارق اتجهوا بحيواناتهم إلى تامسنة الغنية بمراعيها، كما عرفت سنة 1949م فترة جفاف شديدة سبقتها أربع سنوات قليلة المطر ثم أعقبتها فترة خصب (1950- 1951)م[3].

والخلاصة أن فترات التي مرت بها المنطقة تختلف طولا وقصراً، وأنها في جملتها لم تصل إلى حد "النكبة" إلا في السنوات التي تعم فيها المناطق المجاورة وبالتالي تعم آثارها، وللتخفيف من وطأة الجفاف أوجد سكان المنطقة نوعاً من التوازن الإيكولوجي في البيئة الصحراوية وذلك بالتنقل

---

[1] - Dubief(jean), Les Pluies au Sahara Central ; (Extrait des Travaux du LInstitut de Recherches Sahariennes) Alger, 1947, Tome 4 , PP(9-16).

راجع أيضاً:

- Dublief(jean et autres), Resultants tires d enragistrements Automatiquies Recants dans des Stations elevees du Massif Central Saharian, in Bulleetino della Societa I taliano de Geofisica E Meteorologia, Geneva, 1963, PP(6-11)

-

- نقلاً عن: السويدي(محمد) ، بدو الطوارق بين الثبات والتغيّر، الجزائر: م.و.ك، 1986 .

[2] - Ibid.,

[3] - السويدي، المرجع السابق، ص114.

لمسافات بعيدة على مدى شهور عديدة من أجل تلبية حاجاتهم الاقتصادية، والمثل الطارقي يقول : «إذا رأيت جبال الأتاكور اتخدت لون جلد الأروى، فما عليك إلا الابتعاد...»[1]

1. 3- الأودية والغطاء النباتي:

تنبع الأودية الصحراوية من الأطلس الصحراوي وتصب أحياناً في الشطوط وأحياناً تختفي في وسط الرمال، ليس لها جوانب مضبوطة ولا حدود معينة، فهي عديمة الانتظام وفجائية الفيضان، وتنقسم الأودية الصحراوية حسب مناطق منابعها إلى أودية السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي، وأودية الهقار فأما الأولى فتسير على طول السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي وتغوص مياهها في الرمال لتظهر مرة أخرى في شكل عيون فيضية أو آبار، ومن أهم هذه الأودية: وادي جدي، وادي الطويل، وادي العرب، ووادي الأبيض، وكلهم يصبون في منخفض ملغيغ وهو شط واسع الأرجاء تحيط به الكثبان الرملية وتظهر على حوافه النباتات الصحراوية المتنوعة، وتغمره المياه في فصل الشتاء، بالإضافة إلى ذلك نجد أودية الجهة الجنوبية الغربية مثل: وادي زرقون، وادي سوقر، وادي الناموس، ووادي الساورة، أما الأودية المنحدرة من جبال الهقار فتظهر في شكل شبكة منحدرة في عدة اتجاهات أهما: وادي تافاساست الذي يربط الهقار ودولة النيجر[2].

وتتوفر الصحراء على موارد مائية معتبرة لاسيما في الجزء الأكبر من باطنها والأكثر أهمية هي الاحتياطات المائية الكامنة في الأحواض الثنائية والثلاثية الشاسعة الممتدة بين الكتل الجبلية، ومن بينها الحوض الترسبي للصحراء المنخفضة في الركن الشمالي الشرقي الذي يختزن كميات هائلة من المياه قدرت بحوالي 60.000 مليار/متر مكعب، ويتألف من سمطين مكبين، الأول ارتوازي سطحي متجدد يعرف بالقاري النهائي (Continental Terminal) والمتمركز في وادي ريغ، ويتغذى من السيول الصحراوية الممتدة على طول الحواف الصخرية المحيطة بالعرق الشرقي، أما الثاني فهو القاري المتداخل (Continental Intercalaire) والمتواجد في أعماق سحيقة تتراوح مابين 800-1500 متر، ويتزود من السيول الحاصلة على الأطلس الصحراوي والهضاب العليا.[3]

وقد وظف الاستعمار الاستيطاني وسيلة الماء في كسب صفوف جزائرية، من ذلك ما حدث حين أقدمت السلطات الفرنسية على حفر الآبار في أول ماي 1856م، بأمر من علي بن فرحات توقورت وبمساعدة الجنرال " ديفو" وتحت إدارة المهندس " Jus" وتم استخراج الماء من عمق (60م)، الأم الذي ولد فرحة عمت السكان وقيل شعر بهذه المناسبة، ترجمه فيرو إلى اللغة الفرنسية بهذه الصيغة [4] :

---

[1] - Foucauld(le pered), De Calassanti Motylinski, Alger, Ed, R.Besset et J. Carbonel 1922, PP(199-200).

[2] - حليمي(عبد القادر)، جغرافية الجزائر، دمشق: مطبعة الانشاء، 1968، ص88.

[3] - Cote marc,L'Espace algérien , Alger: O.P.U, 1983.P245

[4] - عميراوي (أحميدة)، محاضرات في تاريخ الجزائر، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة. 1999م، ص. ص (199-184).

Je vous annonce des choses merveilleuses
L'eau a jailli du sein des sables
Dieu a donné l'eau au Sahara
Par l'intermédiaire de celui qui gouverne actuellement

وقال الفرنسيون أنه باكتشاف الماء تكون البداية قوية لإقامة إدارة فرنسية بالصحراء بدايتها ورقلة ذات الصلة ببسكرة، وستكون ورقلة سوقا تجارية هامة للأوروبيين والغرب والميزابيين والسود واليهود، وكان عدد النخيل بالصحراء من بسكرة إلى ورقلة الذي كان (198008) نخلة تنتج ما قيمته (30244470)كلغ، وكان سعر الكلغ بـ 0.35 فرنك، وكان محصول الحبوب من شعير وقمح بـ 814820 كلغ، وكان عدد المنازل من بسكرة إلى ورقلة في السبعينات 15090 منزل، وعدد الآبار 5262 بئر وكان بتوقرت ووادي ريغ 2872 منزل و90000 شجرة مثمرة.[1]

بالإضافة إلى ذلك تأتي المياه السطحية بفضل مجاري المياه المنحدرة من الأطلس الصحراوي والنظام النهري لكل من الأودية التالية: وادي قير، وادي الساورة، وادي الأبيض بنواحي بسكرة، ووادي مزي بناحية الأغواط.[2]

لقد كان لظروف المناخ في الصحراء انعكاس مباشر على الحياة النباتية التي تتميز بالضآلة وتحملها للجفاف والحرارة المرتفعة والبرودة الشديدة، في الوقت نفسه يوجد في الصحراء الجزائرية حوالي 500 نوع من النباتات التي هي على العموم قصيرة وسميكة، بالإضافة إلى ثروة حيوانية تتكون من الغزلان وذئاب الرمال ومجموعات من الجرذان والأفاعي والزواحف المتنوعة والطيور.[3]

2 - الملامـح الـطـبيعية والديموغرافية لإقليم توات:

2. 1 - الملامح الطبيعية والجغرافية:

يقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية وتبعد أقرب نقطة منه عن العاصمة الجزائرية بحوالي (1500 كلم)، وهذا الإقليم يشتمل على عدد من الواحات والمدن والقصور التي تزيد على الثلاثمائة وخمسين واحة متناثرة هنا وهناك على رمال الصحراء أشبه بالأرخبيل في البحار. وهي تغطي حوالي ألفي ميل مربع من الأرض، ويقع الإقليم بين خطي عرض 26°-30° درجة شمالا، وبين خطي طول 4° غربا إلى 1° شرقا. وهذا الموقع يمثل امتدادا طبيعيا بمنخفض تنزروفت نحو الشمال.

والإقليم حاليا يقع ضمن امتداد أدرار تيميمون وعين صالح، والأولى كانت تعرف باسم منطقة توات والثانية باسم منطقة القورارة، التي يذكرها ابن خلدون باسم تيجورارة أو تيكورارين[4]، والثالثة باسم منطقة تيديكلت، وقد أطلق بعض الكتاب القدماء على المناطق الثلاثة مجتمعة اسم (إقليم توات)، أما الأجانب أو الطوارق خاصة فيعطون اسم توات أو تسوات على جميع تجمعات مقاطعات الإقليم وأما بخصوص مصدر كلمة توات، فهناك اختلاف كبير حولها. يقول السعدي« أن الكلمة أصلها تكروري بمعنى وجع الرجل ويورد لذلك قصة عند سفر سلطان مالي "كنكان موسى" فتخلّف هناك كثير من أصحابه لوجع رجل أصابه في ذلك المشيء تسمى توات في كلامهم فانقطعوا بها وتوطّنوا فيها فسُمي الموضع باسم تلك العلّة».[5]

---

[1] - نفسه.

[2] - المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، فصل الصحراء الجزائرية في السياسة الاستعمارية، الجزائر: منشورات المركز الوطني، 2000م، ص 30.

[3] -Grand Encyclopédie, Tome 29, Paris, P 66

[4] - ابن خلدون، العرب وديوان المبتدأ والخبر، ج 7 ، بيروت: 1967م، ص ص (118-117).

[5] - عبد الرحمان بن عامر السعدي، تاريخ السودان، (طبعة هوداس)، 1964م، ص 7.

ويذكر المرصاع في فهرسته اسم توات على أنها اسم لأحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين سكان الصحراء حيث يقول: «والملثمون هم قبائل الصحراء بالجنوب عُرفوا بهذا الاسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق، ومنهم طوائف التوارق ولمثه ولمتونة والتوات».[1]

وينتهي بالإقليم ثلاثة أودية تصبّ مياهها الجوفية فيه لتغذي الفقاقير والآبار بالمياه، التي بعثت الحياة في هذا الجزء من الصحراء، وهذه الأودية هي: وادي مقيدن الذي ينتهي بمنطقة القورارة، ثم وادي مسعود الذي ينتهي بمنطقة توات والثالث وادي قاريت الذي ينتهي بمنطقة تيديكلت، والأول عبارة عن امتداد لوادي سفور الذي ينبع من المنيعة ويتجه غرباً حيث تتلاشى معالمه بعض الشيء ثم يظهر من جديد باسم وادي شيدون حيث يستمر في سيره غرباً حتى ينتهي في منطقة قورارة مكوّناً سبخة تُعرف باسم(سبخة القورارة) أما الوادي الثاني وهو وادي مسعود فينكوّن أصلا من اتحاد وادي جير مع وادي زوزفانة عند منطقة إيقلي ثم يتجه نحو الجنوب وهنا يُطلق عليه اسم وادي الساورة وعندما يصل إلى منطقة كرزاز يُغيّر اتجاهه نحو الغرب ثم يستعيد اتجاهه مرّة ثانية نحو الجنوب وهنا يُطلق عليه اسم (وادي مسعود)، وعندما يصل إلى مقاطعة تاسفاوت يكوّن سبخة، وبعد اختراقه لهذه السبخة يتجه نحو مقاطعة رقان، حيث يضيع جنوبها في صحراء تنزروفت ويأتي الوادي الثالث (قاريت) من الشمال الشرقي لمنطقة تيديكلت، ويتجه جنوب غربها حتى يصل في نهايته بوادي مسعود ويُصبح رافداً له.

ونظرا لقلة المياه اللازمة للزراعة فإن سكان الإقليم قد اهتموا بزراعة النخيل في المقام الأول لأن النخلة تستطيع تحمّل قساوة الطبيعة في الصحراء من جفاف وزوابع رملية وحرارة، فقد تصل درجة الحرارة صيفاً إلى(50 درجة) مئوية، وتحت ظلال النخيل زرع الأهالي مساحات محدودة من الأراضي بالحبوب والخضر والفواكه، وبعد أهمية الماء والنخلة لسكان الصحراء يأتي الجمل، فهو الوسيلة الوحيدة في المدة التي ندرسها لربطهم بالعالم الخارجي، وتقطع القوافل العابرة للصحراء مئات الكيلومترات فوق مال الصحراء المحرقة صيفاً ورغم ذلك فلم تتوقف قوافل التجار والمسافرين التواتيين في الداخل والخارج ليتبادلوا السلع والمواد الغذائية مع أسواق الشمال والجنوب.

ونظراً لموقع توات في طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء، فقد أصبحت تمثل محطة هامة لهذه القوافل ومخزنا كبيراً للبضائع، ومارس بعض الأهالي داخل منازلهم بعض الصناعات والحرف اليدوية كغزل كنسج القطن والصوف لعمل البرانس والأبسطة التي كان لها شهرة كبيرة، وخاصة الأبسطة التي كانت تُسمى (بالدكالي) بجانب تجهيز التمر والحناء والطباق للتصدير.

2. 2- الملامح الديمغرافيـة:

ظل إقليم توات مفتوحاً أمام هجرات القبائل المختلفة، وهذه القبائل وفدت إليه على فترات متعاقبة وفي ظروف مختلفة منذ الفتح الإسلامي للمغرب العربي، وحتى القرن الثامن عشر الميلادي، وبعد أن استقرت هذه القبائل في المدن والقصور التي بنوها بدأ المجتمع التواتي يتشكل ببطء من عناصر ثلاثة، البربر، العرب الزّنج، وبعد امتزاج هذه العناصر الثلاثة على مر الزمن يتجلى لنا ذكر ذلك في الفترة التي ندرسها، أصبحت الجماعة التواتية جماعة موحدة في العادات والتقاليد وذات قيم اجتماعية وخلقية ثابتة، وهذه القيم نابعة من أصول إسلامية صافية نظراً لوجودها بعيدة في قلب الصحراء[2]، ومن خلال النظام الطبقي الذي كان سائداً عندهم، نستطيع أن نحدد الأصل والعمل والمركز الاجتماعي لأفراد كل طبقة من الطبقات الأربع التي يتشكل منها المجتمع التواتي[3].

---

[1] - محمد الأنصاري، فهرس الرصاع، تونس: 1976م، ص 127.

[2] - Déporter(A), La Question du Touat Sahara Algérienne, Alger, 1891, P7

[3] - Ibid., PP(7-8).

وأولى هذه الطبقات طبقة الأشراف، وهم الذين ورثوا هذا اللقب بدعوى انحدارهم من أصلاب أجدادهم الأوائل الذين ينتسبون للأسرة العلوية ومعظمهم قدم من المغرب الأقصى، وباعتبارهم من أهل البيت فهم حماة الدين وأصحاب الحدائق والبساتين، والكل يطلب رضاهم، وفي هذه الفترة التي ندرسها كانوا جماعة مستقلة داخل الجماعة التواتية.

وتأتي بعد ذلك طبقة الأحرار، وهي الطبقة الثانية وأفرادها كما هو واضح من تسميتهم ينحدرون من آباء وأمهات من البربر والعرب الخلص وغالبية هذه الطبقة تعمل في التجارة وتمتلك الجواري اللاتي أنجبن منهن نصف أحرار تشكلت منهم الطبقة الثالثة، وقد أطلق على أفراد الطبقة الثالثة اسم (الحرثانيين)، وكانوا يعملون في الحرف والأشغال التي يأبى رجال الطبقة الأحرار العمل بها، ويأتي في نهاية السلم الطبقي العبيد من الرجال والنساء، حيث تكاثرت أعدادهم وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فلم تخل مدينة أو قصر منهم، وكانوا يقومون بالأشغال الشاقة كحفر الفقاقير المائية والزراعة والرعي.

ونظراً لأن الجماعة التواتية جماعة محافظة على تقاليدها، فقد كان لأماكن العبادة ورجال الدين جانب هام من التقديس والاحترام عندهم، ولا يخلو قصر من قصورهم من جامع أو زاوية أو ضريح لأحد الأولياء، كما كانوا حريصين على الاحتفال بالمناسبات الدينية وذكرى أوليائهم في كل عام[1].

ومن الطباع التي امتاز بها الإنسان التواتي، بجانب تدينه، الطيبة وكرم الضيافة وقد أشار إلى هذه الجوانب كل من زار الإقليم، فالعياشي بعد أن مرّ بالإقليم في طريقه لتأدية فريضة الحج يقول عنهم بأنهم (أهل تقوى وصلاح)، والرحالة الألماني (جير هارد رولف) يصفهم بأنهم قوم مسالمون يحبون الغرباء ويحترمون رجال الدين، وكذلك الكومندان (ديبورتر) الفرنسي، فهو يذكر في تقريره أكثر من مرة تمسك أهل توات بدينهم وكرمهم مع الغرباء وبالمسالمة مع جيرانهم[2].

3- أشهر الحواضر والواحات الصحراوية :

رغم اتساع وعزلة الصحراء الجزائرية إلا أنها مهيكلة بشبكة معتبرة من المدن والحواضر والواحات ذات الأهمية الإستراتيجية القصوى بالنسبة للاستعمار الفرنسي لتوغله وإحكام السيطرة التامة عليه، وتتركب هذه الشبكة من مدن وواحات- تعتبر عواصم لأقاليم طبيعية كالزيبان وبني ميزاب ووادي سوف والساورة والهقار... وهي مدن آهلة بالسكان تتفاوت ما بين 15.000 نسمة إلى 40.000 نسمة وأهم هذه المدن:

- مدينة بسكرة، وهي بوابة الجنوب القسنطيني نحو الصحراء المنخفضة وعاصمة الزيبان تعد من أهم المدن الصحراوية المكتظة بالسكان وهي مدينة النخيل والجمال السحري البديع، ومركز من أهم مراكز النهضة ومحور تجارة التمور ومحط رحال السياح.
- مدينة الوادي تشتهر باسم "ألف قبة" "La ville aux milles coupoles" قدر عدد سكانها في حدود 20000 نسمة.
- مدينتي الجلفة والأغواط، كانتا مركزين استعماريين صحراويين هامين في التوغل نحو الجنوب الجزائري، ويقدر عدد سكانهما ما بين (17.000-25.000 نسمة).
- مدينة غرداية عاصمة الميزاب تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم وهي حاضرة هامة آهلة بالسكان بلغ عددهم حوالي (15.000- 20.000نسمة).
- مدينة توقرت، عاصمة طبيعية لمنطقة وادي قير، وهي الأكثر سكاناً في الصحراء بحوالي 40.000 نسمة.

---

[1] - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين (18-19)م، الجزائر: د.م.ج، 1977م، ص13.

[2] -- Déporter(A), Op.cit., P34.

- مدينة كولومب بشار، لقد سميت مدينة كولومب بشار من طرف العالم (Jonnat) سنة 1903م، عندما أسمى المركز العسكري تاقدا Tagda القريب من جبل بشار بكولمب تذكاراً للجنرال Colomb، وزاد من أهميتها اكتشاف مناجم معدنية ذات احتياطات عالمية من الحديد والنحاس والفوسفات والرصاص.
- مدينة تامنراست عاصمة الهقار ومقر نشاط الأب فوكو ومكان قتله سنة 1916م.

بالإضافة إلى هذه المدن المشهورة نجد مجموعة هامة من الواحات أقل سكاناً وأهمية من الناحية الإستراتيجية أهمها:

- واحة بوسعادة وهي أولى الواحات في ناحية الشمال، تقع ما بين شط الحضنة وجبال أولاد نايل.
- واحة تيميمون الواحة الحمراء وعاصمة قورارة تقع ما بين أدرار والقليعة.
- واحة ورقلة واحة الصحراء المنخفضة الممتدة بين العرق الشرقي الكبير وشط ملغيغ، وهي آخر واحات الصحراء الجزائر الجنوبية قبل الهقار وسكانها حوالي 7.000 نسمة.
- واحات الزيبان الغنية وأمثالها سيدي عقبة، طولقة، أولاد جلال.
- واحة عين صالح عاصمة منخفض تيديكلت Tidikelt جنوب حمادة تادميت.
- واحات بلاد الشبكة ومن أهمها بني يزقن والقرارة وبريان ومتليلي وهي تتميز بكثرة العمران وقلة المياه.
- واحة جانت الواقعة بين الهقار وهضبة تاسيلي أجيير Tassili-N-Ajeer بالقرب من فزان الليبية.
- واحة القليعة واحة قليلة السكان ومكان تواجد ضريح الأب فوكو.
- واحة أدرار عاصمة توات.
- واحة بني عباس وتقع بالقرب من بشار.
- واحة حاسي مسعود وتقع في إقليم ورقلة.
- واحة رقان وتحسب على منطقة تيديكلت.

وخلال عمليات الاستكشاف والغزو الاستعماري إلى الجنوب اهتم الفرنسيون بدراسة الإمكانيات الاقتصادية التي تتوفر عليها هذه المناطق، والتعرف على المظاهر الجغرافية الطبيعية، التضاريسية والمناخية وعلى مصادر المياه، وثروة التمور وغيرها وذلك من أجل استغلالها، واستثمارها والاستفادة منها خلال التوسع وبعده، فدرس أحد الضباط الفرنسيين، جغرافية منطقة توات، ومناخها وأساليب السقي، والإنتاج الفلاحي، والأوضاع الثقافية، والعمرانية، فدرس الضابط أوجييرا: Augierask، الجوانب العلمية والفلكية والمظاهر الطبوغرافية، لواحات الساورة، وتوات وموريتانيا، وتحدث باجول عن التكوين الجغرافي والطوبوغرافي والآبار المائية لصحراء ورقلة من واد ميّة إلى واد إيغرغر.

وتوسع موريس بن حازيرة في دراسة كل مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية لسكان الطوارق بالهقار، واستعرض عاداتهم وتقاليدهم، وبعض جوانب تاريخهم السياسي والحضاري.

واهتم بيربروجي Berbrugger؛ بدراسة الآبار المائية، والإنتاج الفلاحي لمنطقة وادي ريغ وتوسع الضابط برنار في دراسة حوض الساورة وزوزفانة وقصورهما، واهتم داثانو بدراسة الأرض والإنتاج، والسكان للمنطقة الصحراوية وكيفية الاستغلال الاقتصادي بها، كما اهتم بدراسة بعض مظاهر حياة الطوارق في أقصى الجنوب.

ودرس بيسي Besset، منطقة تيدكلت من الناحية الجغرافية والسكان والسلالات، والعادات ومصادر الثروة، كما تحدث على مناطق المويدير، وأهنت، والهقار، وأدرار وتانزروفت، وفعل مثله الضابط بيسويل (Henri Bissuel)، فدرس تاريخ وعادات الطوارق، وأسلحتهم، وأساليب حروبهم، ودرس منطقة تادميت، وتديكلت، وتوات، وقورارة، ودعا إلى ضرورة تركيز الاحتلال فيها لأهميتها في ربط الجزائر بتشاد، وتحدث جاك بوركار "Jacques Bourcart" عن النتائج العلمية، والجيولوجية والعسكرية التي توصلت إليها بعثة أولفسي جنوب تونس، وسوف وتقرت، وورقلة، وواد ميّة وتادميت، وتامنراست وأهنت، وأولف، وقورارة، ووادي الساورة، وتعرض كابوري "Capot-Rey" لأهمية آبار وادي ريغ من الناحية الاقتصادية، والسياسية، وركز "كاركسون" على دراسة عادات وتقاليد التوارق، على غرار بن حازيرة، ولكنه أضاف إلى ذلك اهتمامه بدراسة تجمعات السكان، في الأقاليم الصحراوية.

واهتم الضابط أوجان دوما "Eugène Daumas"، منذ فجر الاحتلال الفرنسي للجزائر بدراسة المظاهر الجغرافية، والتاريخية والطرق للمناطق الصحراوية بين بسكرة وورقلة وغرادية، والأغواط، ودرس دولوك Delluc مصادر المياه، ومظاهرها إلى الجنوب الوهراني، بإيجلي، وجنان الدار، وتاغيت، وبني عباس.

وبعد هزيمة فرنسا سنة 1871في حربها مع ألمانيا ، ولّد الشعور القومي موجة جديدة من الجمعيات الجغرافية في مختلف المدن الفرنسية حيث كان لظهورها دور في دفع حركة الكشوفات الجغرافية بالصحراء الجزائرية والسودان الغربي لذلك فقد قامت هذه الجمعيات بدور كبير ذلك أنها دعمت واحتضنت المستكشفين والرحالين وبالذات أولئك المستكشفين الممثلين وهم الشباب المولعون بالرحلات والأسفار .

وقد تمثل ذلك الدعم والاحتضان في تقديم التحويلات اللازمة لبعض المستكشفين والرحالين وفي تخصيص بعض الجوائز المالية لمن يسبق إلى اكتشاف منطقة ما[1] ، هذا فضلا عن تزويدهم بالتوجيهات والإرشادات اللازمة وبالأدوات العلمية الضرورية .... وقد أسهمت هذه الجمعيات إسهاما فعالا طوال القرن التاسع عشر في تغطية أنباء الكشوفات الجغرافية فكانت تقارير ورحلات وأنباء المستكشفين تصل القراء في فرنسا فور انتهاء الرحلة وعلى هذا السياق جاءت رحلة الضابط تماج [2] ورحلتي بورل [3] وفينصان [4] وغالبية الرحالين والمستكشفين الآخرين .

4- التبادل التجاري في توات خلال القرنين(19-18)م:

تعدد بعض المصادر التاريخية بأن علاقة اقتصادية قامت بين الشمال والجنوب في الطرف الغربي والأوسط من إفريقيا في العصور الكلاسيكية والوسطى إلا أنه من المؤكد أن تلك العلاقات لم تزدهر إلا بعد الفتح الإسلامي لمصر وشمال إفريقيا، والمتتبع للدراسات التي عالجت العلاقات بين مناطق شمال إفريقيا والممالك السودانية يجد أن جلّها يرتكز حول دراسات طرق وأعداد الأسواق والمواد التجارية...إلا أن بين ثنايا تلك الدراسات نجد شذرات مقتضبة عن التجار العرب والمسلمين وأثرهم في الحياة العامة في الدول السودانية.

لقد استهوى النشاط التجاري الواسع بالصحراء أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي الأوروبيين، فعزموا على غزوها واستعمارها وكان للفرنسيين دور بارز في هذا

---

[1] - Edmé Français Jomard Remarques et recherches géographiques sur le voyages de caillie dans L'afrique centrale Imprimerie Royale . Paris : 1830 . PP (355 – 357) .

[2] - Mage voyage au tagant (Afrique centrale) paris . Revue Al' gericenne et colonialet03- 1860 pp01-29

[3]- Dominque bourrel :voyage dans le pays de maures brak na .rive droite du Sénégal 1860 paris revue maritime et coloniale .t –Sound septembre .1861 pp 510-545 et octobre 1861 pp .11-77.

[4]- Henri Vincent . voyages d' exploration dans l'adrar . sahara occidental . paris revue algérienne et coloniale 3eme s'erie n ;4 octobre 1860 .pp 445-494

.

الميدان بعد أن احتلوا الجزائر في شمال القارة وبعض المناطق في السنغال في غرب إفريقيا، كما كان مشكل المواصلات الصحراوية من اهتماماتهم الرئيسية، خلال غزوهم وتوسّعهم إلى جنوب الجزائر والصحراء وذلك من أجل تحقيق الأهداف التالية:

- تسهيل عمليات تنقل قواتهم العسكرية الغازية.
- ربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال والغرب والوسط.
- خدمة أغراض التجارة الفرنسية وفتح الأبواب لها في كل أسواق القارة.

وقد اهتموا في البداية بالتعرف على طرق القوافل الصحراوية القديمة، وتحديدها بواسطة الحملات العسكرية والبعثات الاستكشافية، وبواسطة دراسة كتب الرحالة والمؤرخين المسلمين الذين جابوا الصحراء الكبرى طولا وعرضاً أمثال: ابن بطوطة والإدريسي وابن حوقل والبكري والحسن الوزان وابن خلدون وغيرهم.

1-4 المسالك الصحراوية:

لقد ارتبطت الضفتان ببعضهما البعض بمسالك عديدة، كما ارتبط بالمناطق الخارجية بمسالك أخرى، وقد كانت القوافل التجارية تخترق الصحراء من جميع جوانبها لتصل إلى السودان الغربي. أما خط سيرها فهو من الشمال إلى الجنوب أثناء مرحلة الذهاب وبالعكس عند مرحلة العودة، حيث أقيمت المراكز التجارية ليسهل الاتصال بأغلب مدن إفريقيا مثل دوري، وكايا، وتمبكتو وقاو التي شكلت بذلك حلقة وصل بين الشمال والجنوب.

والقوافل التجارية عادة ما كانت تضم عدة رجال مهمتهم تقديم الخدمات الضرورية للمسافرين كالدليل الذي يشترط فيه المعرفة الجيّدة بالمسالك الصحراوية ودراية بالنجوم ومنازلها، وكذلك الطبيب هو الآخر يشترط فيه الدراية بالأعشاب المفيدة لبعض الأمراض أثناء السفر إضافة إلى الفقيه المتمكن في الأمور الشرعية، والحراس الكلفون بحراسة القافلة وإبعادها عن أماكن الخطر، هذا وعادة ما يكون عدد المسافرين فليلا في الطرق الآمنة بينما يكثر المسافرون في المسالك غير الآمنة فهم بحاجة ماسة إلى بعضهم فيتجمعون في قافلة واحدة.[1]

ولقد لعبت الآبار دوراً مهماً في تأمين الماء للقوافل، فهي محطات تستريح فيها الإبل ويُسقى بها المسافرون قِربهم ويراقبون حمولتهم ويتبادلون فيها أخبار الطريق ويتعرفون على الأسعار ويؤدون بها الصلاة وأحياناً تكون مناطق لتجمعات سكانية يتم فيها البيع والشراء، أما توقف القوافل في ذهابها فعادة ما يكون عند منتصف النهار فيستريح المسافرون مدة من الزمن يخرجون فيها زادهم المتكوّن أساساً من التمر والقدّيد والدقيق والشاي...[2]

أما نهاية سير القوافل في ذهابها نحو السودان فهي مدينة تمبكتو، التي تمثل محطة رئيسية لتسويق منتوجات الشمال في كامل السودان الغربي، وبالمقابل فهي تعتبر مراكز استقطاب للعديد من المنتوجات الزراعية من جهة الجنوب وأعالي نهر النيجر الذي يموّلها بالذرة والأرز، وصفها الكاتب "هكارد" بقوله: «تمبكتو منتهى القوافل التجارية الآتية من الشمال المحملة بالملح والتمر والتبغ، فالمغاربة ينزلون بها مع بداية شهر نوفمبر ليعودوا منها في شهر ديسمبر زيادة على قوافل طرابلس وتونس وتوات والجزائر التي تأتي بمختلف السلع والبضائع،... ويقوم بعملية البيع مختلف الشرائح السكانية التي تقطن المدينة، أما العبيد فيعيشون في أسواق تمبكتو من أعمالهم وما يتاجرون فيه لحساب أسيادهم، أما التجار المتجوّلون فيعرضون سلعهم في الساحات العامة وأمام البيوت...».[3]

---

[1] - أبو القاسم (ابن حوقل)، صورة الأرض، بيروت: منشورات مكتبة الحياة،ب.ت، ص 45.

[2] - نفسه.

[3] - Hacquard (A), Monographie de Tombouctou, Paris, Société des études coloniales et maritimes, 1900, P23

ومن أهم المعابر الصحراوية المشهورة التي اعتبرت شريان الحياة الاقتصادية في الصحراء:

* مسلك وادي درعة الذي ينطلق من مراكش نحو تندوف ومنه نحو عرق شاش إلى تاودني وأوران لينتهي بتمبكتو.

* مسلك وادي الساورة الذي يخرج من فاس ومكناس فوادي جير ثم وادي الساورة فتوات وأقبلي ووالن فعين زيزة ثم المبروك وتمبكتو.

* مسلك وهران الذي ينطلق من وهران ويتجه نحو الخيثر والمشية وعين الصفراء وفقيق ووادي زوزفانة وتوات وتمبكتو.

* مسلك الجزائر الذي يبدأ من مدينة الجزائر نحو الأغواط ومنها إلى المنيعة فعين صالح وأقبلي وتمبكتو.

* مسلك الواحات الشرقية ويخرج من بسكرة وتقرت وورقلة وعين صالح والمبروك وتمبكتو.

* مسلك الصحراء الشرقية ويمتد من طرابلس وغدامس نحو عين صالح فأقبلي وتمبكتو.[1]

وعادة ما يتخوّف التجار من سطو قطّاع الطرق مخافة كبيرة، وهذا ما حدث لهم في عدة مرات حيث يسطوْن على ممتلكاتهم وأرزاقهم فيفقدون كل شيء، وهو ما يضطرهم في القوافل المقبلة إلى الاستعانة بفرسان مسلحين لحمايتهم وحماية ممتلكاتهم، وهذه الأخيرة كما ذكرنا سلفاً كانت إحدى المهن التي يسترزق منها الناس.

* مسالك تيدكلت وهي تشكل عقدة مواصلات رئيسية في الصحراء ما بين الأزواد والجزائر الشمالية وهذا ما أكسب معابرها أهمية خاصة في المواصلات التجارية نحو تمبكتو وصولا إلى حاسي المنقار التي تقطع هضبة تادمايت إلى عين قطارة.[2]

وكانت توجد على طريق هذه القوافل آبار بعضها من النوع الارتوازي وجدت منذ أيام حكم دولة مالي على معظم مناطق السودان الغربي، وقد تحدث عن وجودها العلامة ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر فقال: «وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق طريقة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى، وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتُحتّ بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعداً فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض وادياً، ويزعمون أن الماء ربما أعجل سرعة من كل شيء»[3]، وفي موضع آخر يقر ابن خلدون نفسه «أن القوافل التجارية كانت تنضمّ إلى السودان من التلول ومن الأمصار، وأن التجارة مع السودان كانت عامة في المغرب على أيامه، بحيث يشترك سكان البوادي وسكان المدن على السواء».[4]

ويقرر في موضع آخر: «أنه في آخر عهده [أي منذ المدة السابقة لقيام دولة سنغاي مباشرة] أصبح الطريق القديم [وهو الذي يمتد من ناحية السوس إلى والاتن] قد أهمل لما صارت الأعراب من البادية السوسية يُغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيط "توات"»[5]، وهكذا يأتي عهد سنغاي وقد أصبحت الطريق الهامة هي التي تمرّ بتوات وتنطلق منها وتُجهز منها أكبر القوافل التي تقصد السودان من جهة بلدان المغرب العربي، وفي هذا العهد أي سنغاي كوّن التواتيون جالية كبيرة تقطن أهم مدن سنغاي في ذلك العهد.

---

[1] - بوعزيز(يحي)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ،الجزائر: د،م،ج ، 1999 ، ص28.

[2] - للتوسع يراجع: حوتية (محمد)، توات والأزواد، الجزائر: دار الكتاب العربي ، 2007، ص.ص(159-149).

[3] - ابن خلدون(عبد الرحمان)، المصدر السابق، ج7، ص 119.

[4] - نفسه، ج6، ص 120.

[5] - نفسه، ج6، ص 118.

أما بقية الطرق والمسالك فقد استمرّت على عهدها الأول من النشاط في أيام الأسيقيين (1493-1591)، ويُرجح أنها ازدادت ازدهارا بتوارد البضائع الأوربية على المغرب أكثر من السابق، لأنه في هذه الفترة تمكّن التجار الجنوبيون والبنادقة من إقامة فنادق على السواحل المغربية وخاصة تونس حيث كانت بمثابة مستودعات لبضائعهم يتردد عليها جمع كبير من تجارهم وقناصلهم، وبهذا انضافت لبضائع بلدان المغرب التي كانت تنقل إلى السودان كميات من البضائع الأوربية أكثر من السابق، أما الطريق الشرقي فقد ازدادت بضائعه عن ذي قبل وتعاظمت حركة قوافله تبعاً لذلك، لأن هذه الفترة هي التي بلغت فيها دولة المماليك في مصر درجة قصوى من التعامل مع السودان وكذا كثرة الإنتاج[1]؛ إذن فقد بلغت القوافل التجارية أوج قوتها على أيام الأسيقيين رغم أن بعض مسالك الطريق الغربي قد شهدت بعض الاضطرابات إلا أن ذلك لم يُوقف مرور التجار من الغرب وإنما جعلهم يُغيّرون اتجاههم إلى طريق توات.

ومن أشهر المسالك الصحراوية التي ربطت الشمال الإفريقي بالجنوب الغربي:

* **طريق الشرق**: انطلاقا من أسيوط وإسنا وأسوان باتجاه دارفور الذي يتفرع عند الفوجة إلى فرعين أحدهما يتجه نحو دنقلة عبر مجرى وادي مليك والآخر يتجه نحو الخرطوم(سنار سابقاً)، حيث يمتد إلى بربارة وسواكن على سواحل البحر الأحمر شرقاً والمعروف عند المستكشفين بدرب الأربعين.

* **طرق الوسط**: وهي على خمسة مسالك:

- طرق طرابلس باتجاه جغبوب وسيوة والفرافرة والأقصر والذي يتفرع منه عدة مسالك باتجاه كل من سرت وبنغازي ودرنة والقصر الجديد.

- طريق بنغازي باتجاه أوجيلة وجالو وسرهن وكبانو وتاهيته وواداي حيث يتفرع منه مسلكان أحدهما باتجاه ماو والآخر باتجاه أبشر.

- طريق طرابلس إلى مرزق عبر سبهة ثم بئر بكر وتيجري وتيماسينين والبيوض حيث يتصل بطريق قسنطينة إلى تمبكتو.

- طريق سكيكدة وقسنطينة إلى أمقيد والهقار وتمبكت ويمر على باتنة ثم بسكرة وورقلة والبيوض وأمقيد والهقار وتيميساو وإيفروان إلى مبروك وتمبكتو، ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة، ويتجه إلى وادي سوف، ومن هناك إلى غدامس، وغات، وجبادو وبلما وأقاديم وماو وفرع من البيوض إلى عين صالح وفرع ثالث إلى غات.

- طريق مدينة الجزائر إلى تمبكتو، حيث يلتقي بطريق توات إلى تمبكتو وله فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو وتنتيلوست.

*** طريق الغرب:**

- طريق وهران إلى تمبكتو: حيث يمر على خيثر ومشرية وعين الصفراء وفقيق ويتبع مجرى واد زوزفانة إلى إيجلي حيث يلتقي بطريق فاس إلى تمبكتو.

- طريق فاس ومكناس إلى تمبكتو ويمر بقصبة المخزن وأم درييبنة ويتبع حوض وادي غير إلى إيجلي ثم حوض وادي أم الساورة إلى توات وأقبلي ثم مبروك وتمبكتو.

- طريق مراكش إلى تمبكتو ويمر على تارودانت وتاوريرت وتندوف ويخترق رمال إيقيدي وعرق شاش كما يخترق الجوف شرقاً مارًا بأوثان وأروان ليتجه إلى تمبكتو، ولهذا الطريق فرع من تندوف باتجاه الجرف الأصفر وأوقلتا لعزل وفرونة وزمور والقلتة وسماهيت وحاسي بوتلان ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبكتو وفرع إلى قصر البرشان، وعطار، وأوجيفت على الأطلسي.

[1] - زبادية(عبد القادر)، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، الجزائر: م.و.ك، 1989، ص 31.

وبهذا يتضح لنا أن التجارة مع بلدان السودان الغربي والأوسط والشرقي محتكرة لشعوب شمال القارة، وتتوفر بلاد السودان على ما لا يقل عن 800 مركز عمراني في الاتجاهات الطويلة بين خطي عرض 17 شمالا وجنوبا، وما لا يقل عن 500 مركز عمراني في الاتجاهات العرضية من الغرب إلى الشرق وازدهرت التجارة فيها وتطوّرت منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وتمر القوافل على معظم الأسواق والمراكز العمرانية في قلب الصحراء حسب اتجاهها، وتستغرق في ذهابها وإيابها شهورا عديدة، لا تقل عن فصل كامل حسب فصول السنة، وأحياناً تستغرق عدة فصول، فقافلة طرابلس الغرب إلى كانو تستغرق 125 يوما تقطعها على مراحل، وقافلة قسنطينة إلى توات تستغرق 36 يوما وقافلة المدية إلى توات تستغرق 48 يوما وقافلة فاس إلى توات 39 يوما.[1]

2-4 - **الأسواق التجارية:** وأهم الأسواق التجارية التي تتجه إليها هذه الطرق:

* **أسواق السودان الغربي**: ومن أهم أسواقه: تمبكتو التي كانت لها أهمية خاصة خلال العصر الوسيط تجارياً وثقافياً في أقصى الجنوب وتوات وعين صالح بإقليم تيديكلت على طول الطرق توجد أسواق أروان، مبروك، إيفروان، تيميساو، أونان، تاوديني، والن، تيرميثومين، أقبلي.

* **أسواق تشاد والسودان الأوسط**: ومن ضمنها: سوكوتو، قاندو، كاتسنا، تاقليلي، أقاديس، كوكة في برونو، وأبشر في واداي، وماو وأقاديم وبيلما وتنتيلوست وبئر عسيو وجبادو وين وتومو(كاوار)، وإلى شمال هذه الأسواق تقع أسواق فزان وأسواق واحات الكفرة بليبيا.

* **أسواق السودان الشرقي**: ومن ضمنها أسواق دارور وكوردوفان كالفاشر والفوجة والأوبيد وسنار والخرطوم ودنقلة وبربارة وسواكن وسليمة ووادي حلفا.

4-3- السلـع: أما عن السلع التجارية المتبادلة التي كانت تنقلها القوافل من وسط إفريقيا وغربها ومن الشمال فتتمثل في الملح، الذهب، الدقيق، فشعوب أفريقيا جنوب الصحراء كانت في حاجة ماسة وضرورية إلى الملح نظراً لاستعماله في أغراض مختلفة أهمها طهي الطعام خاصة وأن الجسم الإنساني يفقد بالعرق كميات كبيرة منه في تلك المناطق الحارة ، وكانت صعوبة نقل الملح من سواحل البحر على المحيط تشكل عبئاً كبيراً على التجار وذلك لارتفاع درجة الحرارة في طريق الرحلة كما أن تكاليف نقله مرهقة خاصة مع عدم نوفر المناجم التي يمكن نقل الملح منها بسهولة وإلى مسافات بعيدة، وحين تم استكشاف الملح الحجري اعتمد سكان المناطق جنوب الصحراء بصورة كبيرة على مناجم (تغازا)في الصحراء الكبرى والتي كانت تحت سيطرة تجار الشمال.[2]

ونظراً لحاجة أولئك السكان للملح نجدها تقايض بالذهب، وقد لاحظ المؤرخ محمد بن عبد الله الأندلسي أن الحمل الواحد من الملح كان يساوي حملين من الذهب[3]، ولاحظ الجغرافي ياقوت الحموي(575- 625هـ)(1179-1229)م أن أثمن شيء في ضريبة ملك جاو "Goa" كان الملح.[4]

ويقول البكري في كتابه(المغرب) إن ملك غانا حافظ على ثروة بلاده من الملح حين فرض ضريبة قدرها دينار من الذهب على كل حمل يدخل إلى بلاده، ودينارين على كل حمل مماثل يغادرها[5]؛ ويذكر الرحالة والجغرافي ابن حوقل الذي زار أودغست في 951م أن الحمل من الملح يتراوح بين مائتي إلى ثلاثمائة دينار من الذهب[6]، ونجد في هذا كله مؤشراً على أهمية هذه المادة كسلعة مطلوبة في هذه البلاد.

---

[1] - A voir : Bozzodi(Borgo), Rôle du Hoggar dans le commerce Transsaharien (S.D), PP(18-21).

[2] - محمد بن عبد الرحمان الأندلسي، تحفة الألباب، ص 42.

[3] - نفسه.

[4] - الحموي(شهاب الدين ياقوت)، معجم البلدان، ج7، مصر: دار السعادة، 1906م، ص 302.

[5] - البكري(أبو عبيد)، المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزائر: د.ن، 1857م، ص 176.

[6] - ابن حوقل(أبو القاسم)، صورة الأرض، تح دي خوية، ليدن، 1967م، ص 15.

يقول ابن بطوطة(1377-1304)م الذي قام بزيارة إلى بلاد السودان(أرض مالي ونيجيريا وغانا والسنغال) «إن ثمن الحمل الواحد من الملح في مدينة مالي يعادل عشرة مثقال من الذهب ويصل في بعض الأحيان إلى أربعين مثقال ويقول إن سكان تلك المناطق يستعملون الملح كعملة للتبادل بدلا من الذهب».[1]

استمرت أهمية الملح في التجارة إلى القرن 16م حيث لاحظ الرحالة الأوربي "جامستا ألفيس" الذي زار غرب إفريقيا أن سكان هذه المناطق يستهلكون كميات كبيرة من الملح وذلك لكي يتجنبوا جفاف أجسامهم[2]، ويؤيد رحالة أوربي آخر هو "فالنتين فيرناندیز" كثرة استعمال تلك البلدان للملح فيقول إنهم يستعملون الملح كعلاج للعديد من الأمراض[3]، أما المصدر الثاني لاستخراج الملح فقد كان في منطقة أوليل من إقليم جدالة بالقرب من المحيط الأطلسي.[4]

أما سلعة الذهب التي كانت مطلوبة في الشمال الأفريقي وأوروبا فقد كان التجار يحصلون عليها من بلاد غانا المشهورة بمناجم الذهب والتي اشتهرت به حتى أطلق الجغرافيون والرحالة عليها بلاد الذهب[5]، يقول البكري أن أنقى أنواع الذهب كانت من مناجم غاتيرو بالقرب من الساحل الجنوبي للسنغال، وبالقرب من مدينة كييس Keyes وتقع هذه المدينة كما يقول البكري على مسافة 20 يوماً من مدينة غانا(كومبي صالح)، وكانت أحسن أنواع الذهب تأتي من مدينة أودغشت[6]، وقد تعامل التجار بالإضافة إلى الذهب والرقيق في العطور وريش النعام وجوز الكولا والجلود والعاج، وهي سلع كانوا ينقلونها من الجنوب إلى الشمال وبالمقابل حمل التجار إلى الجنوب الملابس والمنسوجات والورق والسيوف أما أهم سلعة كانوا يتعاملون فيها فهي الملح.

وتحمل القوافل خلال اتجاهها من الشمال إلى أسواق الصحراء العديد من السلع والبضائع منها: الأقمشة المتنوعة، والأسلحة المختلفة لتسليح القوات المحلية كالدروع والخوذ والسهام والتروس والبنادق والسروج والألجمة والمهامز، والأواني المنزلية، والأدوات الحديدية، والزجاجية، والفخارية، والخردوات والروائح العطرية والعشبية والصبغية، وأدوات الزينة والتجميل، بالإضافة إلى الكتب المنسوخة والورق والأقلام، وذلك بسبب ازدهار الثقافة العربية الإسلامية وانتشارها بشكل واسع. كما أن بغال المغرب العربي كان مرغوباً في اقتنائها بكثرة في الصحراء، يضاف إلى كل ذلك الخضر الجافة والزيوت والشحوم والزبدة والأغنام والأصواف.

وتحمل القوافل هذه البضائع المختلفة، المغربية والأوربية والأسيوية إلى مختلف أسواق السودان وتبيعها وتبيع معها حتى الجمال التي حملتها إلى هناك بسبب تعبها وضعفها من شدة ثقل الأحمال وطول الشقة والمسافات التي قطعتها، ويقوم التجار بشراء جمال أخرى شابة قوية، ويشترون سلع السودان ويعودون بها إلى الشمال مع مطلع فصل الربيع وأهمها العبيد السود ذكورا وإناثاً والذهب تبراً وقوالب ومعادن نبيلة والملح والعاج والجمال والتمور وبعض الأقمشة الإفريقية.[7]

4-4-أسعار السلع المتداولة: كانت التجارة في الصحراء، تتم بالتبادل في معظم الأحيان نظراً لقلة العملات، وضعف انتشارها واستعمالها، فكمية من الملح مثلا يتم تبادلها بعشرين وزنة من

---

[1] - ابن بطوطة(ابو عبد الله)، رحلة ابن بطوطة، بيروت: 1964م، ص 764.

[2]- Alvis (Cada Mosta), Relation des voyages al cote occidentale de Afrique Trans by M Scheyer, Paris: 1985, P54.

3- Valentine (Fernandes), Description de la Afrique Centre, Trans by P. De Central, Lagos, 1983, P87.

[4] - الإدريسي(الشريف)، صفة المغرب، تح. هنري بيريس، الجزائر: 1957، ص.ص(32-2).

[5] - المسعودي(أبو الحسن)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط2، القاهرة: 1327هـ، ص 39.

[6] - اليعقوبي، البلدان، ص 176.

[7] - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 46.

البشنة أو اللوبية الأهلية، وحمار واحد يباع بألفي وزنة من البشنة وهو ما يعادل عشر حمولات بعير[1]، وإلى جانب التبادل العيني للسلع، هناك عدة عملات شاع استعمالها في تجارة الصحراء بعضها محلية والبعض مستورد من الخارج منها:

- **عملة حديدية** منتشرة كثيراً في مناطق غينيا كما أكد ذلك ابن بطوطة.
- **عملة نحاسية حمراء**، رقيقة وغليظة، ذات قيمة منخفضة جداً.
- **عملة الملح المعدني** الذي يُقطع إلى قطع صغيرة مختلفة الأحجام والأشكال، تستغل في البيع والشراء، كما يستغل دقيق الملح نفسه، خاصة في ولاتة.
- **الكوري Couris** وهي عملة فارسية وهندية، مستوردة قيمتها منخفضة جداً بحيث أن ألف كوري تساوي 0.75 فرنكا.
- **عملة ذهبية** على شكل قطع، أو تبر.
- **الدوخة ducat** الذهبية والفضية.
- **الدراخمة** وهي عملة مستوردة من الخارج من طرف التجار.
- **الدينار** الشائع الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
- **المثقال الذهبي**، ويساوي 19 فرنكا في تمبكتو.
- **المجيدي** ويساوي 4.5 فرنك.
- **المحبوب الذهبي**، الشائع الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
- **الموزونة الفضية**، الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
- **الصائمة النحاسية**، الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
- **الدورو الفضي**، الشائع الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
- **البينتوPinto**، وهي عملة فضية أجنبية.[2]
- وعن أسعار السلع والبضائع، أورد "كوداري" نموذجاً لأرباح تجارة القوافل الصحراوية، وذكر أن الحصان الجيّد الذي يساوي 30 دوخة(240 فرنكا) في الشمال يُباع في السودان بعدد 17 عبداً أسود، كما ذكر أن سعر العبد الذكر 20 دوخة وسعر الأنثى 15 دوخة، وسعر الخصي 40دوخة.[3]

وحسب الرحالة "بوزو" تشترى البضائع الآتية من السودان بالأسعار الآتية:

- العاج: من 200 إلى 220 ألف كوري للقنطار الطرابلسي(50 كلغ)، وهو ما يعادل 200 إلى 220 فرنك.
- ريش النعام: من 50 إلى 60 ألف كوري للكيلوغرام أو 560 إلى 60 فرنك.
- تبر الذهب: من 07 إلى 08 آلاف كوري للمثقال.
- العبد الذكر: من 120 إلى 130 ألف كوري أي 130فرنك.
- الأمَة: من 150 إلى 200 ألف كوري أي من 150 إلى 200 فرنك.

وتباع في طرابلس بالأسعار التالية:

- العاج: من 200 إلى 300 محبوب للقنطار.
- ريش النعام: من 5 إلى 5 وربع محبوب للكيلوغرام.
- تبر الذهب: من 3 محبوب للمثقال أو 13 فرنكا.

---

[1] - نفسه،

[2] - نفسه، ص 48.

[3] - Henri(Stuchli), Le Commerce de la France avec le Soudan, Paris : Calomel, 1864, PP(21-28).

- العبد الذكر: من 70 إلى 80 محبوب.
- الأمَة: من 100 إلى 120 محبوبا.[1]

وإلى جانب ذلك يدفع التجار ضرائب الجمارك غي الذهاب والإياب على الشكل الآتي:

- في غات: خلال الذهاب 01 مجيدي للحمولة (4.5 فرنك) وخلال العودة 02 مجيدي(09 فرنك).
- في أقاديس: 20 فرنكا للحمولة.
- في كانو: خلال الذهاب 25 فرنك للحمولة، وخلال العودة يدفعون 20 فرنك.
- في زندر: خلال العودة بالنسبة للعاج وريش النعام 20 فرنك للحمولة.

4-5- أدوات الكيل:

- **المد:** المقدر بحفنة باليدين المتوسطتين يستعمله لتجار والعامة عند وكيل المواد الجافة كالتمر والحبوب يكثر استعماله عند إخراج الزكاة صبيحة عيد الفطر.
- **الصّاع**: أو الرابعة تساوي أربعة أضعاف المد.
- **القصعة**: تستعمل بإقليم توات وتعادل 2.5 كلغ.
- **المزود**: جلد من الغنم أو البقر يعادل خمسين أو ثمانين كيلوغراماً حسب المادة.
- **الحمل**: يعادل ستين صاعاً.[2]

4-6- أدوات القياس:

- **الذراع**: وهو وحدة الطول ويحدد الذراع ما بين المرفق ونهاية الوسطى، ويساوي خمسين سنتمترا في المتوسط، وتماثله القامة التي يتراوح طولها من 0.47 -0.55 سنتيم. فكل سبع وعشرين قالة يسمونها بالأزواد سابو، رصو، وكل أربعين قالة يطلقون عليها باهسينا أو بيصة وكل ستين قالة تعرف بتون وكل خمس وستين قالة تسمى بساطورة.
- **القامة**: فهي طول الرجل المتوسط، وتساوي في العادة 170 سنتيم.
- **الشبر**: وهو المسافة بين الخنصر والإبهام عندما تكون اليد اليمنى مفتوحة وهو يعادل 21.5 سم.
- **الفتى:** وهو المسافة بين السبابة والإبهام في حالة انفتاح اليد اليمنى ويساوي 17 سم.
- **القدم:** لقياس الأرض وتحسب قدماً بعد أخرى ويستعمل بكثرة لمعرفة وقت الزوال.
- **الحبل**: لقياس الأرض أيضا وطوله 10 أمتار.
- **الميل:** مسافة 1920 متر.
- **الفرسخ:** تعادل ثلاثة أميال.
- **البريد:** ساعة واحدة بالسير المتوسط بالحصان.
- **الحبة:** وحدة لقياس الماء عبارة عن ثقب في لوحة من النحاس تساوي حجم الإبهام طولها تسعة مليمتر يمر بها في الدقيقة ثلاثة لترات من الماء.

أما الوزن فقد اهتموا به في الأشياء الثمينة كالفضة والذهب التي توزن بميزان صغير وقبل الوزن يجرّبون الميزان بحبوب من القمح ومن النادر أن يجد الفرد الأوزان بصروفها وهي جميعها من أحجار مختلفة ليست مؤشرة من طرف سلطة لكن مراقبة من قبل وجهاء المدينة.

1-7- أدوات الوزن:

- **الأوقية**: تعادل في المتوسط 27.5 غرام.

---

[1]- Bozzodi Borgo, Op .;it, PP(4-18)

2 - BOZZO, Op.cit, P 18.

- **الرطل**: يساوي في الغالب 500 غرام.

وتتخذ الأوزان الدقيقة التي كانت تستعمل في وزن مسحوق الذهب أشكالا ومعايير متباينة وهي في الحقيقة أجزاء من المثقال الذي كان يعادل(04غ) وقد حملت تلك الأوزان أسماء سودانية محلية وهي: الباني، والصودو، والثلث، والدياري والعروبو والعروباس.[1]

إن التجارة في الصحراء لم تكن تخضع لإجراءات الحدود من التفتيش والتعريفة الجمركية، فإن التاجر يواجه المخاطر في طريقه –كما ذكرنا سالفا- فالقوافل تقطع مسافات شاسعة في ظروف مناخية صعبة وهي مضطرة لسلوك طرق معينة تقع على جنباتها نقاط المياه، وهذا الاعتبار يُسهل كثيراً مهمة قطاع الطريق والقبائل التي تعيش على السلب والنهب، على أن الطرق التجارية كانت تتمتع عادة بحماية فعالة من بعض القبائل التي يهمها استمرار تيار التبادل التجاري الذي يمدها بما تحتاج إليه منتجات الخارج بل إن حالة الأمن في الطرق التجارية بلغت في بعض المناطق درجة قال عنها المستكشف "ديفيرلي" أنه حينما يعجز الجمل عن حمل عبئه يودع التاجر ذلك الحمل على حافة الطريق وهو واثق من أنه سيجده في مكانه عند عودته من رحلته ولو استغرقت عاماً كاملا.

وكبار التجار يحصلون على ضمانات للأمن بعدما يدفعون أتاوى مهمة للقبائل الرحل، وفي مختلف أطراف الصحراء توجد مراكز عمرانية كثيرة لها أهميتها التجارية وأشهر المراكز التجارية بإقليم السودان الغربي مركز تمبكتو، مركز جاو، مركز توات، مركز أروان.

الخـاتمــة :

من خلال ما تقدم من عرض للإطار الجغرافي والبشري والبيئي والاقتصادي...والتعريف بسكان المنطقة وتشكيل البنية القبلية وأماكن الاستقرار والمسالك الصحراوية من وإلى إقليم توات وكذا إلى انتشار الحواضر بالصحراء الجزائرية أو ما تعلق بالحياة الاقتصادية التي تطرقنا فيها إلى جانب المبادلات التجارية وما يرتبط بها(الأسواق التجارية، السلع والمنتجات، أسعار السلع المتداولة، أدوات الكيل والقياس والوزن) اتضح أن هذا الإقليم ارتبط بحواضر المغرب الإسلامي وكذا إقليم السودان الغربي ارتباطاً وثيقاً بواسطة أعراف تجارية نسجت شبكة من الاتصالات الاقتصادية انجر عنها تبادل ثقافي وحضاري أعطى للإقليم دوراً ريادياً عبر العصور.

كما تبين لنا من خلال هذه الدراسة المتعلقة بالجانب الاقتصادي في إقليم توات النتائج التالية:

- استطاع أهل توات أن يطوّعوا الصحراء لمقتضيات حاجتهم الحياتية، فانتزعوا ما يحتاجون إليه في بناء ثقافتهم و تطوير نمط الحياة الاقتصادية والاجتماعية لديهم.
- استفاد أهل توات منذ تاريخهم المبكر من موقع إقليمهم الوسط في تجارة الصحراء، وبفضل هذا الموقع أصبحت أسواق توات بمثابة نقطة التقاء وتجميع للقوافل العابرة للصحراء في نصفها الغربي، ولم يتوقف نشاطهم عند هذا الحد؛ بل إن التجار التواتيين ما لبثوا أن ربطوا شمال المغرب بأسواق السودان الغربي عن طريق قوافلهم الذاهبة والآيبة داخل الصحراء.
- بدأت توات تفقد دورها الاقتصادي داخل الصحراء تدريجياً ابتداءً من نهاية القرن 19م وذلك عندما وقع السودان الغربي في قبضة الاستعمار الأوروبي، وبدأت تجارة هذه المناطق تسلك طريق سواحل غرب أفريقيا ومنها إلى أوروبا، وما لبث الإقليم التواتي أن وقع في قبضة الاستعمار الفرنسي في مطلع القرن العشرين.

[1] - نفسه، ص 165.